



من بيت النبوة - مع بنت رسول الله زينب رضي الله عنها

19 فيه ذكركم

محاضرة في الأردن

2024-05-06

عمان

الأردن

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا الأمين وعلى آله وأصحابه أجمعين. اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علماً وعملاً مُتَقَبَّلاً يا رب العالمين.

مقدمة:

وبعد أيها الإخوة الكرام: لقاءنا اليوم من بيت النبوة، واللقاء عندما يكون من بيت النبوة، على ساكنه أفضل الصلاة وأتم التسليم، يكون مُعْطِراً بأريج النبوة، ويكون مؤسساً كما هو أنسُ نبينا محمدٍ صلى الله عليه وسلم.

كما تعلمون أيها الكرام، النبي صلى الله عليه وسلم، قد رزقه الله بسبعة أولاد، ثلاث منهم من البنين، وأربعة من البنات، فأما البنون، فهم القاسم وعبدالله وإبراهيم، وكلهم توفوا في سن صغيرة، فالقاسم توفي في أرحح الأقال وعمره سنتان، وعبد الله أيضاً توفي صغيراً رضيماً، وأما إبراهيم ابن مارية القبطية رضي الله عنها، فقد عاش سبعة عشر شهراً، فكلهم توفوا في عُمرٍ صغير، وله أربع من البنات، هم زينب وفاطمة ورقية وأم كلثوم، عليهم سلام ربي ورضوانه.

زينب تزوجها أبو العاص بن الربيع رضي الله عنه، وهو ابن خالتها، ابن هالة بنت خويلد، أبو العاص أمه هالة بنت خويلد، وزينب أمها خديجة بنت خويلد، وفاطمة تزوجها علي رضي الله عنه وأرضاه، وأنجبت منه الحسن والحسين وزينب وأم كلثوم، وأما رقية وأم كلثوم فتزوجهما عثمان بن عفان، ولذلك سُمِّيَ بذي النورين، تزوج رقية فلما ماتت، تزوج أم كلثوم، وماتت في بيته وهو حي، فسُمِّيَ بذي النورين، لأنه أخذ نوران من رسول الله صلى الله عليه وسلم، رقية وأم كلثوم، رضي الله عنهم جميعاً.

زواج زينب رضي الله عنها من أبي العاص ووقوعه في الأسر:

حديثنا اليوم عن زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، لأن في قصة زواجها، وقصتها مع أبي العاص بن الربيع ابن خالتها عبرة كثيرة نحتاجها في هذه الأيام، وفي كل زمان ومكان.

زينب تزوجت من أبي العاص بن الربيع في حياة أمها خديجة، وكانت تدعو زوجها إلى الإسلام فيأبى، في يادئ الأمر لم يكن هناك حُكم بأن تفارق الزوجة المسلمة زوجها الكافر، من باب التدرج بالأحكام لم ينزل التحريم، فأسلمت لكن زوجها لم يُسلم، فكانت تدعوه إلى الإسلام فيرفض ولا يقتل، وحاولت قريش أن تُطلق زوجته، فاستغلوا الموقف وحاولوا أن يدفعوه إلى طلاقها، لعلهم بذلك ينالوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم، طبعاً خابوا وخسروا، لكنه رفض، قالوا له: فارق صاحبك ونحن نُزوجك أي امرأة من قريش شئت، قال: لا والله إني لا أفارق صاحبتني، أي زوجتي، وما أحب أن لي بامرأتي امرأة من قريش، كائنت من كانت، رفض، وكما قلنا كان مسموح للمرأة المسلمة أن تبقى عند زوجها الكافر حتى نزل قوله تعالى في المُمتحنة:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ ۚ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ ۚ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ ۚ
إِنَّمَا لَهُنَّ جِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ۚ وَأَنْتُمْ مِمَّا أَنْفَقُوا ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ ۚ وَلَا تُمَسِّكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَسَأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلَيْسَ أَلَا مَا أَنْفَقُوا ۚ ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ ۚ يَخُكِّمُ بَيْنَكُمْ ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ
(10)

(سورة الممتحنة)

فأمر النبي صلى الله عليه وسلم، النساء المسلمات بمفارقة أزواجهن الكفار.

على كُلي أبو العاص بن الربيع، بعد ذلك وكانت زوجته ما تزال عنده، أُسِر في معركة بدر، وزوجته في مكة، وأصبح أسيراً في المدينة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكل من أهل الأسرى جعلوا يفتدون أسيرهم، يرسلون مالا فداءً لأسراهم لإطلاقهم، زينب رضي الله عنها أرادت أن تفتدي زوجها من الأسر، فأرسلت فلانة كانت قد أهدتها إياها خديجة رضي الله عنها، وهذه الفلانة كانت في عتق خديجة وعند زواج زينب بأبي العاص أدخلتها معها، يعني ما يدخل مع المرأة في زفافها، أي هدية الزفاف، فأرسلت زينب هذه الفلانة وهي أعز ما تملك، كما يُقال من ذكرى أمها، فأرسلتها فداءً لزوجها، وأرسلت أيضاً ما معها من مال، يعني الفلانة وما معها من مالٍ لتفتدي زوجها، روت عائشة رضي الله عنها كما في الصحيح، قالت:

{ لَمَّا بَعَثَ أَهْلُ مَكَّةَ فِي فِدَاءِ أُسْرَائِهِمْ بَعَثَ زَيْنَبُ فِي فِدَاءِ أَبِي الْعَاصِ قَالَ وَبَعَثَ فِيهِ بِفَلَانَةٍ لَهَا كَانَتْ عِنْدَ خَدِيجَةَ أَدْخَلْتَهَا بِهَا عَلَى أَبِي الْعَاصِ فَلَمَّا رَأَاهَا رَسُولُ اللَّهِ رَقَّ لَهَا رِقَّةً شَدِيدَةً وَقَالَ إِنْ رَأَيْتُمْ أَنْ تَطْلُقُوا لَهَا أُسِيرَتَهَا وَتَرُدُّوا عَلَيْهَا الَّذِي لَهَا فَقَالُوا نَعَمْ وَكَانَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَخَذَ عَلَيْهِ أَنْ يَخْلِيَ سَبِيلَ زَيْنَبَ إِلَيْهِ وَبَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زَيْنَبَ بِنَ حَارِثَةَ وَرَجُلًا مِّنَ الْأَنْصَارِ فَقَالَ كَوْنَا بِيَطْنِ بِأَجْحَ حَتَّى تَمَرَّ بِكَمَا زَيْنَبُ فَتَصْحَابَهَا حَتَّى تَأْتِيَا بِهَا {

(أخرجه أبو داود وأحمد)

فلما رأى الفلانة رسول الله صلى الله عليه وسلم، تذكر خديجة، ورق لها رقة شديدة.

موضوعية النبي صلى الله عليه وسلم في التعامل مع الحقوق:

قال أهل الحديث: رقت لزينب وجدتها وغريبتها، وحق لخديجة رضي الله عنها وتذكر عهدا، فالفلانة ذكرته بخديجة رضي الله عنها، ولما رأى ابنته تُرسل بأعز ما تملك، فرق أيضاً لزينب وهي وحيدة وغريبة لا أهل لها في مكة وحدها.

(فلما رآها رسول الله رقت لها رقة شديدة وقال إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرتها وتردوا عليها الذي لها) هو سيد الخلق، وقائد الأمة، وقائد الجيش، ويده كل شيء، في فئة من الأمة، فلو شاء لقال لهم أطلقوا الأسير من اللحظة الأولى قبل أن يُرسل الفداء، ولو شاء لقال لهم أمركم أن تفعلوا فعلوا، فهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم، لكن انظروا إلى الأدب النبوي العظيم، كيف يؤدب الأمة من بعده، وكيف يعلم في موضوع الحقوق، قال: **(إن شئتم أن تردوا لها زوجها وأن تردوا عليها الذي لها فافعلوا)**، أي اقتراح، أن تُرجعوا لها هذه الفلانة ومعها زوجها بدون فداء أرسلوه، **(قال إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرتها وتردوا عليها الذي لها فقالوا: نعم) فلما أطلق سراحه صلى الله عليه وسلم، أخذ عليه عهدا، فوقى أبو العاص بهذا العهد، يقول صلى الله عليه وسلم، كما في الصحيح:**

{ إِنَّ عَلِيًّا حَطَبَ بِنْتُ أَبِي جَهْلٍ، فَسَمِعَتْ بِذَلِكَ فَاطِمَةَ، فَأَتَتْ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَتْ: بَرُّعُمُ قَوْمِكَ أَلَّا لَا تُعْصِبَ لِبَنَاتِكَ، وَهَذَا عَلِيٌّ نَاكِحٌ بِنْتُ أَبِي جَهْلٍ! فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَسَمِعْتُهُ جِئِن تَشَهَّدَ يَقُولُ: ****أَمَّا بَعْدُ؛ أَتُكَلِّمُ أَبَا الْعَاصِ بْنِ الرَّبِيعِ، فَحَدَّثَنِي وَصَدَّقَنِي، وَإِنَّ فَاطِمَةَ بَعَثَتْ مِنِّي، وَإِنِّي أَكْرَهُ أَنْ يَسُوءَهَا، وَاللَّهِ لَا تَجْتَمِعُ بِنْتُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَبِنْتُ عَدُوِّ اللَّهِ عِنْدَ رَجُلٍ وَاجِدٍ، فَتَرَكَ عَلِيُّ الْخَطْبَةَ. وَرَادَ مُحَمَّدُ بْنُ عَمْرٍو بِنَ خَلْحَلَةَ، عَنِ ابْنِ شِهَابٍ، عَنْ عَلِيٍّ بِنِ الْحُسَيْنِ، عَنْ يَسْرٍ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: وَذَكَرَ صَهْرًا لَهُ مِنْ بَنِي عَبْدِ شَمْسٍ، فَأَتَنِي عَلَيْهِ فِي مُصَاهَرَتِهِ إِثْبَاهُ فَأُحْسِنَ، **** قَالَ: حَدَّثَنِي فَصَدَّقَنِي، وَوَعَدَنِي فَوَقَى لِي. ****

(صحيح البخاري)

ورد في بعض كتب السيرة أنه قال: **"ما ذمناه صهراً"**، يعني هذه موضوعية، الموضوعية قيمة عظيمة، يتلاقى فيها شيطان، العلم والأخلاق، فالموضوعي عالم والموضوعي أخلاقي، إذا كنت عالماً وأخلاقياً معاً فأنت موضوعي، هناك أناس كثر عندهم علم، لكن علم بلا أخلاق لا يوجد موضوعية، يُقرب أهله وفرايته، ويُبعد الآخرين بناءً على النسب، أو بناءً على العلاقات الشخصية، أو بناءً على ما يقدمونه له من مالٍ أو هدايا أو رشوة، مُحاباة لا يوجد موضوعية، هناك أخلاق لكن لا يوجد عمق بالعلم، أيضاً ليس هناك موضوعية، لكن العلم مع الأخلاق يؤدي إلى الموضوعية، أبو العاص مُشرك، وقبل إسلامه كان يقول عنه النبي صلى الله عليه وسلم: **ما زماناه صهراً**، فهو كان صهراً جداً **(حدَّثَنِي فَصَدَّقَنِي، وَوَعَدَنِي فَوَقَى لِي)**. هذه هي الموضوعية، هذا الدرس اليوم نحن بحاجة كثيرة له في حياتنا، فحسن اليوم إن أبعضنا أبعضنا إلى الانهائية، وإن أحببنا أحببنا إلى الانهائية.

عن عَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: <>. وإذا ذكرت المساوي، فاذكر المحاسن قبلها.

روي أن سيدنا عيسى مَرَّ بجيفة ميتة، <> فالموضوعي أو الإنسان الذي عنده جمالٌ في روحه يرى الجمال، فأنت قبل أن تنتقد الآخرين بما لديهم من مساوي، أنتي على ما عندهم من محاسن، هذه هي الموضوعية، وهذه هي الأخلاق، وهذا هو العلم، فالتبي صلى الله عليه وسلم، يُحدِّث عن أبي العاص بن الربيع وهو مشرك، وهو عدوٌ له خرج إلى بدر ليحاربه، وأسير وهو يحاربه.

ويروي أن السيدة زينب لما علمت بذلك قالت ماذا سيحصل؟ أبي أو زوجي، يقتل أو يُقتل، فهو خرج مع قريش ليحارب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم يستعرض النبي صلى الله عليه وسلم الأسرى، فيقول: **ما ذمناه صهراً**، كان صهراً جيداً، ومعاملته جيدة مع السيدة زينب، يُحبها ورفض أن يُطلقها، وهو مُشرك، ثم شاء الله عزَّ وجل، وهو ربُّ، ومعنى الربِّ أنه مُربِّي، والمُربِّي يُربِّي، فأنت ربُّ الأسرة وُربِّي الأسرة، فابنك تعاقبه حيناً، وتُلقنه حيناً إلى الاعتذار، تُلقنه حيناً إلى العفو، أي تتوَعَّع في معاملتك معه حتى تنجح التربية، ربنا جلَّ جلاله عَلِيمٌ بكلِّ شيء، وهو مُربِّي وله المثل الأعلى، فُربِّي عياده، فشاء الله تعالى أن يقع أبو العاص مرَّةً ثانية في الأسر، خرج بتجارةٍ من الشام، ومعه أموال الناس وأمواله، وأسير وهو ذاهبٌ إلى الشام في تجارته، سرية لزيد بن الحارثة، أسروه وأخذوا ما معه من مال، فهي حربٌ بينهم، والطريق مُصادرة، فأسروه وأخذوا ما معه من مال، استطاع أبو العاص بطريقه أو بأخرى أن ينجو منهم، وسأل عن بيت زينب، وهو يحمل في قلبه كل محبة لزينب.

لما النبي صلى الله عليه وسلم قال له عندما أطلق سراحه، إذا وصلت ابعت لي زينب، فإنَّ الله قد حرَّم مسيئاً على كافر، وصل إلى مكة والسيدة زينب بانتظاره، أرسلت تفتديه بالأسر، فأول ما رآها قال لها: إلى أبيكي، حان وفاء العهد، فقد قال لي عندما تصل ثريسل ابنتي لي، وهو يُحبُّها وتُحبُّه وهو زوجها، إنَّ الله أمرني أن أفارقك، إنَّ الدين فَرَّق بيني وبينك، هذه أخلاق العرب، هذا غير مسلم، فما بالك ماذا صنع الإسلام بهؤلاء! الذين يُشككون بالعرب وأخلاق العرب، نقول لهم: صحيح أنَّ العرب كان عندهم من الجاهلية والتي هي ضد الجلم، يُثارون لأدنى سبب، لكن عندهم من المكارم ما جعل لهذه الرسالة الكريمة أن تكون فيهم، فالعرب عندهم مكارم، والوفاء بالعهد عندهم شيءٌ مُقدَّس، وصل وهي زوجته ولكنه لم يسكت عن العهد، وقال لها: إنَّ الدين فَرَّق بيني وبينك، وأنا وعدت محمداً فذهبي لأبيكي.

المسلمون يُجبر عليهم أدناهم:

فرجعت لأبيها في السنة الثانية للهجرة، بعد بدر، فلما أُسير في المرَّة الثانية بحث عنها، فذلَّ على بيتها، وطرق الباب عليها وقال لها: قد استجرت بك فأجبريني، فأجارته وأدخلته، فهو زوجها سابقاً، وقد حنَّت له وأجارته وسكنت، خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى صلاة الفجر ليُصلي بالناس، فلما أراد أن يُكبِّر، صرخت زينب من الصف في مكان النساء، أيتها الناس إني قد أجزت أبو العاص بن الربيع، فقال صلى الله عليه وسلم: هل سمعتم ما سمعت؟ قالوا: نعم، فقال: إنها أجزت أبو العاص بن الربيع.

امرأة تُجبر رجلاً أخذ بسرية، في موطن آخر لما النبي صلى الله عليه وسلم فتح مكة، جاءت امرأة ودخلت وقالت إني أجزت فلاناً، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: قد أجزنا من أجزت، المسلمون يُجبر عليهم أدناهم، فهذا مثال لكل من يتكلم في الإسلام بأنه سيف ودماء، نحن سيفنا ودماننا من أجل حماية العقيدة، ومن أجل حماية ديننا، لا من أجل التعطش للدماء كما أنتم، حرب على الإسلام وحرب على الأطفال وحرب على النساء، امرأة تُجبر رجلاً فيقول النبي صلى الله عليه وسلم، قد أجزنا من أجزت، يُجبر عليهم أدناهم، أي شخص يُجبر شخص فتقول ما هذه الأخلاق العظيمة! والإسلام عزَّزها، العرب عندهم هذا دخل بجوارى وانتهى، لا يقره أحد والنبي صلى الله عليه وسلم، استخدم هذه الجوار، فلما دخل مكة فاتحاً قال:

{ عن ابن عباس، قال: لما نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم مرَّ الظَّهران قال العباس: قلتُ والله، لئن دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة غنوة، قبل أن يأتوه فيستأمنوه إني لَهلاكُ قُربش، فجلستُ على بغلة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقلتُ لعلِّي: أجدُ ذا حاجةٍ يأتي أهل مكة فيخبرهم بمكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ليخرجوا إليه، فيستأمنوه فإني لأسيئُ إذ سمعتُ كلام أبي سفيان، وبُدِّل بين ورقاء، فقلتُ: يا أبا حنظلة، فعرف صوتي، فقال: أبو الفضل؟ قلتُ: نعم، قال: ما لك فداك أبي وأمِّي؟ قلتُ: هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم، والثَّاس، قال: فما الحيلة؟ قال: فركب خلفي، ورجع صاحبته، فلما أصبح عدوتُ يه على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأسلمت، قلتُ: يا رسول الله، إنَّ أبا سفيان رجلٌ يحبُّ هذا الفخر، فاجعل له شيئاً، قال: نعم، **span style="font-weight:bold;">>** من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق عليه داره فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن قال: فتفرَّق الثَّاس إلى دورهم وإلى المسجد { (الألباني في صحيح أبي داود)

المُدارة مسموحة لكن المُداهنة ممنوعة في الدين:

فقلت إني قد أجزت أبا العاص بن الربيع، فالتبي صلى الله عليه وسلم قال لها: أكرمي مثواه، ولا يقربك، فإن الله حرَّم مسيئاً على كافر، أكرمي مثواه، لكن في الدين ليس هناك تلاءم بامر الدين، الدين خط أحمر، قالت يا رسول الله إن يبغد فهو ابن الخالة، وإن يقرب فهو أبو الأولاد، فقال: أكرمي مثواه فإنه أبو العيال، أبو أمانة وعلي، أبو العاص له منها أمانة وعلي، وقال: أكرمي مثواه، ولا يقربك، فإن الله حرَّم مسيئاً على كافر، يعني في قضية المجاملة، من غير الدين جامل كما تريد، لكن لا تجامل في دين الله عزَّ وجل، المُدارة مسموحة لكن المُداهنة ممنوعة، المُدارة أن تبدل الدنيا من أجل الدين، ابذل دنيك أطعم الناس، مؤمن وغير مؤمن، أطعمه وأكرم مثواه، أجره لعله يهتدي، لعلك تُقرِّبه من دينك، لكن إياك أن تبدل دينك من أجل الدنيا، هذه المُدارة والمُداهنة، هذا تص في ذلك، قال أكرمي مثواه، الدنيا ابذلها له، لكن لا يقربك لأن هذا دين، لا يوجد مُداهنة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ(9)

(سورة القلم)

لا يوجد مُداهنة في دين الله عزَّ وجل.

الآن النبي صلى الله عليه وسلم عندما سمعها تقول: أيتها الناس إني أجرت أبا العاص بن الربيع، النبي صلى الله عليه وسلم وهو سيد الخلق، وحبيب الحق، وقائد الأمة، قال لم أسمع بهذا الكلام إلا الآن، أي لا يخطر في بال أحدكم بأن الأمر مرتب بين الأب وابنته، حاشاه صلى الله عليه وسلم، قال: إني لم أعلم بهذا الأمر إلا الآن، فالتبى صلى الله عليه وسلم يريد أن يحل المشكلة، لأن هذا الرجل هي أجارته، وهو معه مال وأموال لقريش في تجارة، وهذا فيء حكم أيضاً، ليس هناك مجاملة بالدين، فبعث إلى السرية لأنه هو قائد الجيش، يعني مثال للتقريب: لواء في الجيش أرسل للمُقدّم، نريد أن نحل الموضوع، لا ليس كذلك، اللواء يُصدر قراراً، المُقدّم يقول له أمرك سيدي، لرسول الله المثل الأعلى، لكن هنا يوجد حكم شرعي، لا ينبغي أن يُستنهان به.

{ **أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعَثَ إِلَى الشَّرِيَّةِ الَّذِينَ أَصَابُوا مَالَ أَبِي الْعَاصِ، وَقَالَ لَهُمْ: «إِنَّ هَذَا الرَّجُلَ مَتَّ حَيْثُ قَدِ عَلِمْتُمْ، وَقَدْ أَصَبْتُمْ لَهُ مَالًا، فَإِنْ تُحْسِنُوا تَرُدُّوهُ عَلَيْهِ الَّذِي لَهُ، فَإِنَّا نَحْبُ ذَلِكَ، وَإِنْ أُبِيْتُمْ ذَلِكَ، فَهَوِ قَبِيءٌ لِلَّهِ الَّذِي أَفَاءَهُ عَلَيْكُمْ، فَأَنْتُمْ أَحَقُّ بِهِ»**، قالوا: يا رسول الله، بل نرُدُّه عليه، قال: «فَرُدُّوهُ عَلَيْهِ مَالَهُ» }، حَتَّى إِنَّ الرَّجُلَ لَيَأْتِي بِالْحَبْلِ وَيَأْتِي الرَّجُلَ بِالشَّيْءِ وَالإِدَاوَةَ حَتَّى أَنْ أَخَذَهُمْ لَيَأْتِي بِالشَّظَاطِ حَتَّى رُدُّوا عَلَيْهِ مَالَهُ بِأَسْرِهِ، لَا يَفْقِدُ مِنْهُ شَيْئًا، ثُمَّ احْتَمَلَ إِلَى مَكَّةَ، فَأَدَّى إِلَى كُلِّ ذِي مَالٍ مِنْ قُرَيْشٍ مَالَهُ مِمَّنْ كَانَ أَبْصَعَ مَعَهُ، ثُمَّ قَالَ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، هَلْ بَقِيَ لِأَحَدٍ مِنْكُمْ عِنْدِي مَالٌ لَمْ يَأْخُذْهُ؟ قالوا: لا، فَجَرَاكَ اللَّهُ حَيْرًا؛ فَغَدَّ وَجَدْنَاكَ وَفِيًّا كَرِيمًا، قَالَ: فَإِنِّي أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَمَا مَنَعَنِي مِنَ الْإِسْلَامِ عِنْدَهُ إِلَّا تَخَوُّفًا أَنْ تَطَّلُوا أُنِّي إِنَّمَا أَرَدْتُ أَخَذَ أَمْوَالِكُمْ، فَلَمَّا آذَاهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَيْكُمْ وَفَرَعْتُمْ مِنْهَا أَسْلَمْتُ، ثُمَّ حَرَجَ حَتَّى قَدِمَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ { (المستدرک علی الصحیحین)

فهو زوج ابنتي سابقاً، وهو أبو أحفادي، انظر إلى التربية العظيمة، النبي صلى الله عليه وسلم كيف يُربي أصحابه، كيف يُربي الأمة على أن الحقوق ليس فيها مجال لأن يصدر بها قرار لا من وزير ولا من أمير، وانظر إلى اللهجة! (إن رأيتم أن تحسنوا له فإنا نحب ذلك)، لكن لا تأمر به، أمّا بالنسبة للحقوق فأنتم أحق به، ولا أحد يلومكم لأنكم تأخذون حقاً لكم، فَرُدُّوهُ كَلَهُ.

كيف أسلم أبو العاص بن الربيع:

الآن أبو العاص رجع إلى مكة، وأدّى إلى كل ذي مال ماله، هو معه أموال الناس، ثم عندما أذى للجميع حقوقهم، وقف، (ثم قال: يا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، هَلْ بَقِيَ لِأَحَدٍ مِنْكُمْ عِنْدِي مَالٌ لَمْ يَأْخُذْهُ؟ قالوا: لا، فَجَرَاكَ اللَّهُ حَيْرًا، فَغَدَّ وَجَدْنَاكَ وَفِيًّا كَرِيمًا) وقبّلت الحقوق وكنيت كريماً معنا، الوفاء وقبّلت الحق، والكرم ربما زدت شيئاً، (قال: فَإِنِّي أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَمَا مَنَعَنِي مِنَ الْإِسْلَامِ عِنْدَهُ إِلَّا تَخَوُّفًا أَنْ تَطَّلُوا أُنِّي إِنَّمَا أَرَدْتُ أَخَذَ أَمْوَالِكُمْ). لأنه عندما رأى هذه الأخلاق وتلك المعاملة هناك في المرة الأولى والثانية، والصدق والموضوعية في التعاطي معه، وهذا المجتمع المسلم كيف يتعامل، وكيف يُجير أديانهم، وكيف أنّ امرأة قد أجارته، وقد أسير، فعزم على الإسلام، لكن خشي أن يقال إنما فعل ذلك، أي الإسلام يجب ما قبله، والأموال ذهبت وعذره معه، أسروني وأخذوا الأموال والأموال أصبحت في خزينة المال، أو رُدُّوهم لي، فرجع فوفى الأموال، وعندما وفاها نطق بالإسلام والشهادة، فعاد إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فجمع بينه وبين زينب في السنة السابعة للهجرة، يعني بعد خمس سنوات تقريباً، خمس سنوات يقال في السيرة أنه تقدّم لخطبة زينب الكئيرون لكنها رفضت، زينب عندها أمل في أن يُسلم هذا الرجل فتعود إليه، لكن تعود إليه وفق منهج الله، ولا يفرضي الله فوق الولد وفوق الزوج وفوق كل شيء، ففي السنة السابعة للهجرة أعادها إليه بناءً على إسلامه.

زينب رضي الله عنها توفّيت في السنة الثامنة للهجرة، عاشت معه سنة ثم توفّيت، ثم لحق بها، وهناك أقوال مختلفة، أكثرها على أنه في السنة الثانية عشر للهجرة، وقيل قد عاش بعدها فقط إحدى عشر شهراً، وكان يبكيها بحرقه بكاءً شديداً، هو لم يتزوج غيرها وهي لم تتزوج غيره، حتى جمع الله بينهما في الإسلام، هي التي ولدت له أمامة وعلي، علي مات شاباً عند الاحتلام، وعاشت أمامة حتى ماتت في زمن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه، وهذه أمامة هي التي كان يُصلي صلى الله عليه وسلم وهو يحملها، فإذا سجد وضعها على الأرض، وإذا قام حملها، هذه أمامة حفيده، وتروي أم عطية رضي الله عنها لقا ماتت زينب قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم:

{ دَخَلَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ تُؤَقِّبُ ابْنَتَهُ، فَقَالَ: اغْسِلْتَهَا ثَلَاثًا، أَوْ حَمَسًا، أَوْ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ، إِنْ رَأَيْتَ ذَلِكَ، بَمَاءِ سِدْرٍ، وَاجْعَلْنَ فِي الْآخِرَةِ كَافُورًا، أَوْ شَيْئًا مِنْ كَافُورٍ، فَإِذَا فَرَعْتُنَّ فَأَدْبِنِي. قَالَتْ: فَلَمَّا فَرَعْنَا آدْبَاهُ، فَأَعْطَانَا جِقْوَهُ، فَقَالَ: اشْعِرْتَهَا إِيَّاهُ. تَعْنِي بِجِقْوِهِ:

{ إزاره }

(أخرجه البخاري ومالك)

فُلِّقَتْ أَمَامَةَ بِنْتُ زَيْنَبِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، لُقِّتْ بِإِزَارِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

الدروس التي تتعلمها من قصة أبا العاص بن الربيع:

فيا أحبائنا الكرام: هذه القصة أنا كنت أطالعها منذ أيام، عادت إلى الذاكرة من القصص القديمة، التي كُنيتُ منكم يعرفون عنها، لكن أتيت بها من مصادرها الصحيحة، ومن كتب السيرة المعتمدة، جزءٌ منها أحاديث صحيحة معتمدة، وجزءٌ من كتب السيرة الأكثر شهرةً واعتماداً، تتعلم منها دروساً، إن أردنا أن نتعلم منها درس الوفاء، ففيها الوفاء من أبي العاص، وهذا يُعلمنا إذ أننا أكثر ما يشدُّ الناس إلى دين الله تعالى ليس المعلومات، فالمعلومات يمتلكها الكثيرون، واليوم كم من العلماء الكبار يمتلكون معلومات لا يمتلكها نحن، ولكن طهر منهم بعض التصرفات التي لا تمثُّ إلى أخلاق الإسلام بصلبة، فنفر الناس منهم، وكم من أشخاص لا يمتلكون المعلومات الكثيرة، ولكنهم يمتلكون صفة الخلق والتواضع والوفاء بالعهد، فالتفت الناس حولهم، والنبي صلى الله عليه وسلم يخاطبه ربه جلَّ جلاله فيقول:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
"فِيمَا رَحِمَهُ مِّنَ اللَّهِ لَئِن لَّهُمْ لَوْ كُنْتَ فَطًّا غَلِيظًا لَّالْقَلْبِ لَأَنقَضُوا مِنْ حَوْلِكَ" قَائِفٌ
عَثْمُهُمْ وَأَسْتَعْيِرُ لَهُمْ وَشَاوَرُهُمْ فِي الْأَمْرِ قَائِدًا عَزَمْتُ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ (159)

(سورة آل عمران)

فإذا كان هذا الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم، الذي أوتي ما أوتي من جمال الصورة، وجمال المنطق، والخلق العظيم، ويقول له تعالى: **(وَلَوْ كُنْتَ فَطًّا غَلِيظًا الْقَلْبِ لَأَنقَضُوا مِنْ حَوْلِكَ)** ومعنى الآية بالتفصيل، **(فِيمَا رَحِمَهُ مِّنَ اللَّهِ لَئِن لَّهُمْ لَوْ كُنْتَ فَطًّا غَلِيظًا لَّالْقَلْبِ لَأَنقَضُوا مِنْ حَوْلِكَ)** أي بسبب رحمة استقرت في قلبك يا محمد صلى الله عليه وسلم، كنت لئباً لهم، بسبب اتصالك بنا اكتسبت هذه الرحمة، فالتقوا حولك، ولو انقطعت عتاً - وهذا غير موجود حاشا لرسول الله صلى الله عليه وسلم - لأمتلئ القلب قسوة وانعكست القسوة غلظةً وفطاطةً في التعامل مع الناس فانفضَّ الناس من حولك، فإمّا أن تتصل بالله فيمتلئ القلب رحمةً، فتعكس الرحمة لئباً في خلقك فيلنف الناس حولك، وإمّا أن ينقطع الآخر عن الله فيمتلئ القلب قسوةً فتعكس القسوة فطاطةً وغلظةً في تعامله مع الناس، فينفضوا الناس من حوله، وهذا قانون لكل مسلم، ولكل شخص في مركز قيادي، سواء كنت في متجرك أو في معملك، أو المعلم في صفه، أو المدير في شركته، في أي مكان كنت، اتصل بالله، فالله يعطيك رحمةً، فيكون تعاملك لئباً فيحبك الناس، وإمّا المُنقَطع عن الله فقلبه قاس، وتعامله فظ غليظ، فالناس يتعدون عنه، وإن اقتربوا اقتربوا لمصلحة لكنهم لا يحبونه، الناس تحب اللئب، تحب الموصول بالله السهل اللين الرفيق، هذا من تحبه الناس، فالناس ينظرون إلى أخلاقنا وتعاملنا، ولا ينظرون إلى كثرة معلوماتنا أو قننا.

فهذا أبو العاص بن الربيع رضي الله عنه، الذي شدّه إلى الدين في المُحَضَّلة، هو الأخلاق التي عومل بها من قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن قبل زينب، هو في البداية كان رافضاً للإسلام، قال: لا أنفج عن قومي، ولا أخالف أمرهم، عزة الجاهلية، تركته، بقى متعلقاً بها، لكن لم يدخل الإسلام إلى قلبه، في المرّة الأولى في الأسر رنا يُربيه جلّ جلاله كما يُربي الجميع، فعندما أسير في المرّة الأولى ورأى التعامل، فصدق ووفى بعهد، بادل الخلق بخلق، وأسير في المرّة الثانية، رنا عزّ وجل ساقه للأسير في المرّة الثانية، والعبرة الثانية في الموضوع، أنّ كثيراً من المنح تأتي على شكل محن من الله عزّ وجل، فمن كان يقول أنّ أسير أبو العاص فيه خير، وما أدري أبو العاص فئاسر وئساق، ويؤخذ المال منه، وهو يقول ذهب المال الذي معي، مال قريش وأموال الناس، وعندني عشرون مستثمر للأموال كيف سارجع لهم، والآن أصبحت في الأسر، في هذه اللحظة من كان يقول أنّ أسير أبو العاص فيه خير لأبي العاص، لكن لو لم يكن كذلك، ما جلسنا اليوم نقول أبو العاص رضي الله عنه وأرضاه، والعياذ بالله كذلك أبو لهب كان في عهد النبوّة، أخزاه الله

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (1)

(سورة المسد)

أحياناً تأتي المنح من الله عزّ وجل على شكل محن:

فكثيراً ما تأتي المنح من الله على شكل محن، لا تدري أنها منح في اللحظة التي تحصل معك، لكن يقودها الله تعالى إلى منح، فهذا أيضاً درس مهم من دروس هذه القصة، واليوم ونحن نعيش مع أهل عزة، نسمع الآن بعض الأخبار التي تتوارد، لعله يكون فيه خير في وقف إطلاق النار نسال الله ذلك، فإن القلوب قد تعبت، والأجسام قد أعياها متابعة هذه الأحداث المؤلمة، ولكن كلنا يقين بأنها إن وقفت الآن أو قبل ذلك أو بعد ذلك، فإن الله عزّ وجل يقود الأمور لخير لا نعلمه الآن، أو نعلم بعضه ونجهل أكثره، وسيأتي يومٌ إننا نحن أو أولادنا، سيذكرون هذا التاريخ بخير، ويقولون كانت بذور النصر والفرح والتمكين تُصاغ، وكُنّا نحن نبكي ونتألم على الشاشات، ولكن الله عزّ وجل كان يُهيئ الأمر لفرح عظيم إن شاء الله تعالى، والحمد لله رب العالمين.